

التقاطع المعرفي للتأويل: بين الرؤية التراثية والنقد الفلسفي.

*The Cognitive intersection of Hermeneutics: Between
Philosophical criticism and Heritage Perspective.*

سلطان ثابت1

جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2

الجزائر.

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

من القضايا الإشكالية التي أثبتت كثيرا في النقد العربي المعاصر ، جدل التراث وعلاقته بالماضي والحاضر وهل بإمكانه استشراف المستقبل وتداخل التأويل ضمن هذه المقاربة. لذا ارتأى بحثنا الخوض في هذه القضية من وجهة نظر فلسفية، باعتبارها من ضروب النقد التي أخذت على عاتقها البحث عن حلول لهذه الأزمة والدخول ضمن إطار متين للحدثة المبتغاة، وكونها تمس النقد العربي بكل تجلياته وأطيافه، خاصة فيما يتعلق بمدى حضور قضية التراث في الخطاب الفلسفي، وصولا إلى الهدف الذي يسعى إليه المشروع، خاصة وأن الهرمونيظيقا تعد لبنة من اللبنة التي لازالت تساهم في تفسير علاقة التراث بالحدثة والولوج لنقد عربي قويم على كل الأصعدة.

الكلمات المفتاحية: النقد، الهرمونيظيقا، الفلسفة، التراث، الحدثة.

Abstract:

One of the most debated issues in contemporary Arab criticism is the controversy surrounding heritage and its relationship with the past, present, and future and the interplay of Hermeneutics in this context. This research aims to explore the issue of heritage from a philosophical perspective, seeking solution to this crisis and paving the way for a modern Arab critic. The hermeneutics plays a crucial role in interpreting the relationships

between heritage and modernity, enabling a robust Arab critic across various levels.

Key words: Criticism, The hermeneutics, philosophy, Heritage, Modernity..

*** **

مقدمة:

إن قراءة التراث النقدي من القضايا الإشكالية التي أثّرت في النقد العربي، لذلك ارتأينا الخوض في هذا المجال من خلال الوقوف على خطاب النقد الفلسفي الذي أخذ على عاتقه البحث عن حلول لهذه الأزمة، التي عصفت بالنقد العربي، فكان مشروع القراءة الهرمونيوطيقية تسير ضمن محط المشاريع النقدية في تفسير أثر التراث داخل الفكر العربي منذ أزيد من قرن من الزمن، ساهمت في إثراء الحقل الثقافي وتعزيز دور الثقافة العربية وتقوية الجسور بينها وبين مختلف مكوناتها وبين الثقافة العالمية وذلك قد أسهم في تحقيق أشكال متقدمة من حوار الثقافات، كما عمل باستمرار على التجديد في الأسئلة الثقافية المرتبطة بالهوية العربية بوصفها جزءا من الهوية الإنسانية المبنية على القيم النبيلة، مثلما كان ومازال مساهما في بناء الشخصية الثقافية العربية داخل العالم العربي وخارجه، كما أسهمت القراءة الهرمونيوطيقية في أنشطة ذات بعد أكاديمي أو ثقافي منفتح في عدد من الجامعات والمعاهد والمؤسسات والمراكز الثقافية. وتأسيسا على هذا يطرح البحث مجموعة أسئلة تتعلق بمواقف هذا النقاد العرب التي يتميز المشاريع النقدية التي يسعى من خلالها لأن يكون لبنة ترتقي بالمجتمع العربي من ماهية المرجعيات الفكرية لديها، وأين يتموقع التراث في هكذا نوع من القراءات النقدية وهي التي أفردت له جزءا مهما من كتابات النقاد؟ وما هي الإشكالية التي طرحتها في قراءتها للتراث؟

أولا: قراءة مختصرة جدا في النقد العربي:

لابد من القول في البداية بأن النقد العربي هو جزء من الثقافة العربية المعاصرة التي تعكس مجمل مقومات الواقع الاجتماعي العربي والواقع الحضاري العربي بصفة

عامة، لذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل النقد عن مجمل التطورات والتناقضات والإشكاليات الحضارية العميقة التي يعيشها المجتمع العربي سواء في صراعه مع الذات أو الآخر، أو من خلال تفاعله مع التيارات الفكرية أو مع الحضارات الأخرى، ومنذ القديم وحضارتنا العربية الإسلامية تحاول أن تتفاعل بأشكال وصيغ ومدلولات مختلفة مع الحضارات الإنسانية، إلا أن هذه المرحلة الراهنة تتميز بخصوصيات محددة فرضها العالم والتطور على المستوى العلمي والتقني، وفرضها التطور الفكري بمعانيه وأشكاله المختلفة والقصد هنا الفكر السياسي والاجتماعي والأدبي والفلسفي إلى غير ذلك من أشكال الفكر.

لذلك ينبغي النظر إلى أي جهد أو عمل يوصف بكونه "مشروعاً نقدياً" على أنه حلقة مترادفة وموصولة بحلقات أخرى تشكل في مجملها مشروعاً فكرياً متكاملًا يشترط فيه أن يكون متجانساً وقائماً على تصور محدد بذاتها، ويعتمد خطاباً خاصاً له سماته الفارقة وعدّته النقدية المتميزة عن غيره، والقائمة على منهجيات واضحة وعدة مصطلحية ومفهومية وتنظرية قادرة على حمل ثقل مشروعها، والانتقال به من مجرد تنظير إلى مشروع قائم بذاته له معالمة وخصائصه وأهدافه، "لهذا تجد في سياق الفكر العربي من النقد من يدعي أنهم أصحاب رؤية ومشاريع نقدية ينطلق من فهم واضح ورؤية منهجية. إن مفهوم المشروع النقدي ظل مشروعاً عائماً يكتنفه الكثير من الغموض واللبس والإبهام على الرغم من تداوليته الكبيرة لدى معظم النقاد -بمختلف أجيالهم- حين يتحدثون بشيء من الزهو عن تجاربهم النقدية"². بالتالي فقد برزت الدراسات النقدية في الفكر العربي المعاصر كإحدى الاتجاهات التي طرحت مشاريعها النقدية بالاستناد إلى أبعاد وعناصر متعددة، يمتد بعض هذه العناصر بجذوره في أعماق الخصوصية الحضارية العربية وأعيد إنتاجها راهناً بالاستعانة ببعض الأفكار النظرية والفلسفية الحديثة وذات الأبعاد الغربية.

ثانياً: المرجعيات الفكرية للنقد الهيرمونيطيقي:

يعتبر النقد الهرمونيطيقي ضمن المناهج النقدية المزاوجة للأدب والفلسفة معا، فقد زاح بين النقد الأدبي والترجمة والمقالة من جهة، وبين النقد الأكاديمي والمجدد من جهة ثانية، هذا ما جعل مؤلفاته تصبح ذات بعد مرجعي أساسي في الدراسات النقدية والأدبية في كل الوطن العربي، فأنجزت حولها رسائل بالجامعات العربية، كما يعتبر إطارا للعديد من البحوث في تخصصات الدراسات النقدية والبلاغية والتحليل النصي، سواء بالجامعة المصرية أو بجامعة أمريكية وغربية وعربية، وقد حقق ضمن هذا السبيل تحولا في الدرس الأدبي وفي المنهاج ما أثر إيجابا على الدرس الجامعي و النقدي الأدبي.

لقد انشغل هذا المبحث الفلسفي والأدبي في العديد من أبحاثه بسؤال النقد بوصفه خطابا معرفيا، وبسؤال المنهج بما هو جملة مبادئ وقواعد تهتم بالأفكار الأدبية وتستمد منها، من هنا كان اهتمامه باغناء تصوره في الدراسات الأدبية بفتحها على قراءة النص الأدبي التراثي، وكذا النص الحديث والمعاصر، إن ما نجده ضمنه من أبحاث تبين إسهامه الخلاق ورؤيته النقدية النوعية تعطي الدليل على مسار فكري وثقافي متعدد التجاري في الحقول النقدية التي اتخذ منها مجالا لتحليل وتنظير على الأقل منذ مطلع السبعينات من القرن الماضي إلى اليوم، كما يتجلى تعلق الخطاب النقدي بكل ما هو فكري واجتماعي وسياسي بأفق تنويري وجدلي يستكنه هوية النصوص ويواكب حركية النقد واتجاهاته النظرية والمنهجية.

يقول الباحث "عبد الفتاح الحجمري" في استنتاج له في إحدى الندوات حول مشاريع "الهرمونيطيكا" «إن الذخيرة النقدية للهرمونيطيكا تتأمل قيمة الأدب بوصفه حقيقة إنسانية، كما تدعوا إلى عدم إغفال قيمة النقد، بوصفه خطابا موجها نحو فهم تلك الحقيقة، والكشف عن طبيعة الأشكال المميزة لها، حيث تتخذ تحليلاته من أبعاد النص الذاتية والجمالية والفنية سبيلا لملامسة قضايا الكتابة واللغة والمتخيل، والثقافية الوطنية والقومية والهوية، وغيرها من القضايا التي تقرب النص من مجال قراءة الذوق والمتعة، بأبعاد ثقافية وفكرية» وهو المجال الذي لا يغفل أن العمل الأدبي

لا يرتبط بالإيديولوجيا عن طريق ما ينطقه بل عن طريق ما يسكت عنه، فتشعر بالإيديولوجيا في فجوات النص وأبعاده الغائبة.

لقد انشغل هذا النوع من النقد دوماً بقضايا التخلف والتقدم، ولذلك اهتم بثقافة التنوير والعقلانية والحرية والفكرية والإبداعية، وهو أحد أشد الأصوات الليبرالية العربية الداعية إلى تحديد أسئلة النهضة العربية غير المنجزة، وتخليص الأمة العربية من ثقافة التخلف، إن خلاصة مشروعه في هذا المجال هي "أن تراثنا العربي لا تزال تهيمن عليه قيم التخلف التقدم، والدليل على ذلك أن الحضارة العربية الإسلامية لم تزدهر إلا بمدى ما حققت من حرية فكر وإبداع، وإنها لم ترعف طريقها إلى الانحطاط إلا عندما تستبدل التقليد بالاجتهاد، والتعصب بالتسامح و التسلط الظالم بالمساواة في العدل"⁴³

تعتبر الدراسات الهرمونيوطيقية من بين أكثر الدراسات عمقا ونضجا ووعيا في النقد الأدبي العربي الحديث، نظرا لما تميزت به من شمولية وإحاطة ودقة ووضوح، وتجاوز للنظرة النمطية التقليدية لهذا التراث وقضاياها بحيث يتناول التراث بعين المستقبل لا بعين الاستعادة والتكرار، فقد اصطف "جابر" إلى جانب الثقافة التنويرية التي لا ترى في التراث مجرد كتلة من الأحداث والمفاهيم المستقلة عن وعينا، بل ثقافة ترى التراث من منظور الوعي بالحاضر والإدراك للوجود الآني، فقد عاد هنا مثلا "جابر عصفور" إلى التراث النقدي العربي لينقب فيه عن أكثر المحاولات النقدية نضجا، خاصة منها تلك التي تحمل هم التأصيل النظري للشعر مثل "نقد الشعر" لقدامة ابن جعفر، وكتاب "منهاج البلغاء و سراج الأدباء" لحازم القرطاجي فقد اعتبرت محاولة هذا الأخير التي ظهرت في القرن السابع مرحلة "تكامل المفهوم" أي مرحلة النضج.

ففي هذا السياق لقد حاول "جابر عصفور" صياغة التصورات الغربية بمرجعيات معرفية متنوعة و تعامل معها بروح علمية ووعي نظري و منهجي منفتح، بغاية تغليب التربية الثقافية العربية وإتاحة مناخ عقلائي مساعد على تجاوز الوضع الثقافي المأزوم في الوطن العربي، كما تميز عن غيره في ربط النقد و نظريته إليه في ضوء علاقته مع غيره من الأنماط المشكلة للتراث وخصوصا التصوف الذي لم يكن يدرج عادة في نطاق

دراسة التراث وهذه العلاقة هي التي منحت دراسته بعدا إشكاليا وجعلت مفهوم القراءة ينطبق عليها فلولاها لكانت دراسة الصورة الفنية مثل عديد الدراسات التي تلج نقد النقد من باب العرض والتاريخ والتكرار. فهو إذن مفكر ذو شخصية متميزة وفريدة من نوعها، فقد جمع في فكره أفكار الحداثة والتطور الفكري وحوار وصراع الحضارات وهواجس الحرية والعقلانية العربية، وسبل تحرير المجتمعات العربية من تبعات التخلف الحضاري والاستبداد والقمع السلطوي بالتالي الاندماج في الحداثة الحقيقية المرجوة.

ثالثا: مفهوم التراث في النقد العربي:

إن التراث بمفهومه الواسع عرف من قبل عدة نقاد كل حسب إيدلوجيته التي تحركه والهدف الذي يريد الوصول إليه من خلال فعل مسألة كل ناقد للتراث و محاولة تقديم قراءات له إضافة إلى أن طريقة التعامل والموضوع الذي يضمه التراث يجعل من هاته الإختلافات واضحة.

فالتراث هو هذا الكل من الماضي يوجد فينا فيشكلنا هذا ما يجعل منه جزءا من حاضرن الذي يتبعنا للوصول إلى المستقبل و هو لا يقتصر على الأنا بل يتعداه إلى الأنا الآخر/ الغير سواء أكان الغرب أم تراث الأمم الأخرى من الهند و الفرس والتي كان لها دور في بناء الحضارة العربية قديما، سواء بعد هذا التراث أم قرب و يشير الجابري إلى هذا في قوله "أنه كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي سواء ماضينا أو ماضي غيرنا القريب منه أو البعيد"⁵

وما يلفت الانتباه في هذا التعريف هو الطابع الإنساني الذي يجمع ماض الأنا و الغير مؤكدا طابع الاستفادة من التراث العالمي.

والجابري في هذا التعريف يؤكد على كيفية التعامل مع التراث و ضرورة الانفتاح على الآخر والاستفادة من تراثه، فالتراث حسبه هو كل ما اتجه البشر مستثنيا بذلك، من خلال قول النص الديني لارتباطه بالذات الإلهية وارتباط التراث بالبشر، و هو

بذلك يعبر عن كينونة الذات التي تعبر بدورها عن رؤاها لوجود و لا يختلف هذا عن تعريف عبد الغني بارة في قوله "بأنه نتاج بشري يعبر عن كينونة الذات ضمن شروط تاريخية أسهمت في تشكيل خصوصيات الأفراد الذين انجروا بفعل الإبداع رؤيتهم الخاصة للوجود و إن كان ثابتا لدى منتجيه فهو متحول في أزمنة و عصور يحتمل الإضافة و التطوير بفعل القراءة الواعية لهذه الأنساق"

ولا يختلف تعريف "جابر عصفور" عن التعريفين السابقين إذ يؤكد في قوله عن التراث، أنه «كل ما ورثناه تاريخيا عن أسلافنا الذين هم الأمة البشرية، التي نحن امتداد طبيعيا لها، فالتراث ميراث إنساني لجهد بشري، خلفه الذين أورثونا إياه»⁶

وما توصلنا إليه في هذه التعريفات، أن كل من هؤلاء النقاد اعتبروا التراث انتاج و جهد بشري يستثني النص المقدس إلا أن جابر يتميز بقرنه للتراث بالميراث الذي يعني التصرف الكامل فيما نملك، لأنه موروث عن أجدادنا، و لنا كل الحق في التفاعل مع هذا الإرث فالتراث حسب جابر عصفور جعل منه ملكا يحق لنا التصرف فيه فربطه بالميراث و من خلال هذا القول نجد أن جابر عصفور قد استعان بالقدماء في ربطهم بين تلك المصطلحات فمثلا نجد مادة ورث قد وردت عند ابن منظور في كتابه لسان العرب في قوله "الوارث: صفة من صفات الله عز و جل و هو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق (...)"⁷ ووردت عند آخر "الورث"، و الإرث، و التراث و الميراث: ما ورث، و قيل الورث والميراث في المال والإرث في الحساب.

إن هذه الصورة تبرر القدسية التي يضيفها بعض من النقاد على مادة ورث، فقد ساوى هذا المنهج بينهما على أسس ما نتوارثه فتطرق إلى التفرقة بين الإعتزاز، بالتراث والتأريخ له مع تمجيده وبين الوعي النقدي به حتى لا يحكم قبضته علينا، و يمنعنا من مواكبة الحياة و بناء المستقبل و الفكر الذي يتطور ويستمر بتطورنا، فهو عمل إنساني خالص المتمثل في أفكار و أفعال البشرية حيث يقول جابر عصفور في هذا الصدد "إنه عمل إنساني خالصا، أو حالة للإنسان بطبعه...، من حيث هو إنسان، عالم، صانع، فاعل"⁸

وهناك من النقد من يعرفه على أساس من العلوم والآداب و الفنون المتوارثة، جيل عن جيل فوجد هذا في تعريف صالح زيداني، في قوله "التراث هو ما ينتقل من عادات وتقاليده وآداب وعلوم وفنون ونحوها من جيل إلى جيل".

3- إشكاليات التراث من المنظور الفلسفي:

تنطلق قراءة التراث من خلفيات وأبعاد يحدد بها دراسته في مجال قيم قراءة التراث النقدي عموماً، حيث يطرح هنا ثلاث مشكلات أساسية، هي مشكلة (حضور) التراث، ومشكلة علاقتنا به، والحدود القصوى لعملية القراءة أو فعلها. وما يؤكد دراسة هذا السياق فيما يتصل بالمشكلة الأولى سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر هو أن "النص التراثي حضورين، حضور (هناك) في تاريخه الخاص، في القرن الثالث أو الرابع أو الخامس للهجرة، حين كتب ابن المعتز مقدمة عبد القاهر، في علاقات تاريخية محددة، وفي شروط إنتاج معرفة متعينة وحضور هنا في تاريخنا الخاص في القرن الخامس عشر للهجرة"⁹، إذ يكشف النقد في هذا القول أن هناك قسمين للحضور، الأول هناك في تاريخه الخاص والثاني هنا في قراءته المنجزة الكاشفة عن عالم النص المقروء، بينما تتحول علاقة القارئ بالمقروء إلى علاقة اتصال وانفصال في آن واحد، في قوله «إذا كان القارئ ينتهي إلى عصره و المقروء ينتهي إلى عصره المقابل، فإن العلاقة بينهما علاقة انفصال لا محالة، لكن هذا الانفصال سرعان ما يتحول إلى اتصال على مستوى البعد القيمي الذي ينطقه النص المقروء»¹⁰

وعني بذلك إبراز القيمي لعالم القارئ ومخزونه الثقافي وتعالقه مع عالم وعيه المعاصر، وتنعدم عملية القراءة أو فعلها مع حدود الشكل والمحتوى في تاريخه، وفي استحضاره المعاصر بما ينفع في توازن العلاقة بين الذات والموضوع، فحسب قول جابر عصفور " لا يكفي لمواجهة هذه المشكلة أن نرد الأمر إلى توازن العلاقة بين الذات والموضوع في القراءة، ذات القارئ وموضوعها الذي هو النص المقروء، فالمشكلة أعقد من ذلك، وحضور النص نفسه ليس حضوراً مفارقاً تماماً، أو مستقلاً معرفياً عن حضور الذات القارئة"¹¹، من خلال هذه المشكلات التي طرحها مثلاً "جابر عصفور" في مقدمة كتابه ""قراءة التراث النقدي" يظهر مدى حضور الموضوعية في قراءة التراث

النقدي، ومدى حضور التراث المقروء نفسه، كما يعترف الناقد في هذه المقدمة بأنه لا توجد قراءة محايدة للتراث و لقراءة التراث، لا بد من الإنطلاق من مواقف فكرية محددة لا سبيل إلى تجاهلها، ولا بد من التفتيش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننطلق منها.

4- آليات قراءة التراث العربي:

إن قراءة التراث بشكل جيد، لا بد وأن ينعكس بشكل إيجابي على قراءة الواقع، وبذلك يمكننا الإستفادة من المعطيات الإيجابية في بناء أدبنا و فكرنا بناءا متماسكا، لذلك نجد الهيرمونيطيقا تدعو إلى امتلاك نظرة دقيقة للقراءة خاصة فيما يتعلق بالتراث النقدي بغاية الوصول إلى قراءة منهجية تسهم في تطوير وعينا بواقعنا وتراثنا في آن. فكل قراءة جيدة لتراث عنده تشكل إنتاج معرفي جديد حيث تشكل هذه القراءة جانب من الحياة الفكرية لمجتمع القارئ.

تتضمن القراءة الهيرمونيطيقية "معنى الضم والنطق والإبلاغ معا"¹²، قراءة التراث النقدي شأنها شأن أية قراءة أخرى لا يمكن أن تتقدم إلا إذا انقسم وعي القارئ على نفسه في المرحلة من مراحل القراءة فيصبح وعيا مزودجا ذاتيا و موضوعيا في الوقت نفسه، بحيث يتمكن هذا الوعي من تأمل نفسه في علاقته بمعطيات التراث المقروء و كيفية إدراكه لها وسيطرته عليها، فيكتمل فعل التحقق الذي تكتمل به سلامة القراءة في يقين هذا القارئ، وكل قراءة لديه تتبع الرموز اللغوية و تضم عناصرها من خلال عملية النطق التي يقوم من خلالها القارئ بإبلاغ المحتوى المقروء إلى آخرو هذا التصور المعاصر للقراءة اللغوية يجعل منها عملية هيرمينوطيقية.

إن فعل قراءة التراث بوجه عام فعل واحد لا ينفصم من حيث المنظور المنهجي، ولا يختلف في آلياته أو إجراءاته من حقل معرفي إلى حقل آخر من حقول التراث، فهو فعل متحد متكرر الكيفية و التوظيف و الأداء في كل الحقول التراثية، أما حدث القراءة متحد في أصوله متغاير في تجلياته واحد في آلياته متعدد في تطبيقاته، كما ينطوي حدث القراءة على مجموعة من المستويات العلائقية: فالمستوى الأول يتضمن علاقة

القارئ بما يتناهى معه من تراثه المقروء حيث الحضور الآني لهذا المقروء، في وعي القارئ بوصفه حضورا مقترنا بالمشعور.

أما المستوى الثاني فيتضمن علاقة هذا القارئ موصولا بتراثه المتسرب في وعيه بالأنساق المعرفية في عصر القراءة، بأدوات انتاجها للمعرفة و علاقاتها ويتضمن المستوى الثالث علاقة المقروء بنفسه في عصر انتاجه، ويتحقق المستوى الرابع من خلال علاقة المقروء بنسقه بغيره من الأنساق المعاصر، أو سابقة أو اللاحقة، ومن الملاحظ أن المستوى الأول يتجاوب مع المستوى الرابع في وصل القارئ بالمقروء خلال التوسط الذي يحققه حدث القراءة داخليا وخارجيا، والمستوى الثاني والثالث يكفيان اللحظة المعرفية للحدث ويضبطان توازن الأبعاد الذاتية والموضوعية في تلك اللحظة التي لا تعرف الانقسام أو الانفصال بين مستوياتهم الآنية.

وبالتالي يتضمن حدث القراءة ثلاثة عناصر أساسية تتمثل في قراء ومقروء والأنساق المعرفية التي تصل بينهما و تحيط بهما والقراءة الناتجة عن هذا الحدث تتصف بالموضوعية التي هي رهينة الحضور الفاعل لهذه العناصر في علاقتها المتكاملة وبغياب أحد هذه العناصر تتغير القراءة بصفات مغايرة، وبهذا يؤكد جابر عصفور على دور القارئ بوصفه فاعلا للحدث مساهما في تحديد موضوعه ولا ينطبق هذا التأكيد على قراءة التراث القومي فحسب، بل يتجاوزه إلى قراءة التراث العالمي، وتظل ثنائية القارئ والمقروء لديه تتضمن عنصريين داخل حزمة من العلاقات التي تكشف عن تداخل مجالهما المعرفي والقارئ هو فاعل له حضوره الممتد في شبكة معقدة من العلاقات القائمة في تاريخ معين وهو منطو سلفا على أنساق معرفية قبلية و المقروء له حضور ممتد في شبكة مقابلة، وينتهي إلى نسق معرفي من أنساق التاريخ وهذه الأنساق المعرفية التي تتوسط بين القارئ والمقروء هي العنصر الذي لا بد أن نلتفت إليه من حيث ما يقوم به من دور في حدث القراءة التي هي عملية معرفية / إتصالية بين القارئ والمقروء ، والعلاقة المتفاعلة بين أنساق القارئ والمقروء، ولعلاقة بينهما تظل دائما علاقة تجاوب وتفاعل وهذا التفاعل في ذاته، يعني أن هناك داخل حدث القراءة دوما يصله بخارجه.

حيث يرى البعض أن التراث المعرفي خارج تكوين وعي القارئ من حيث هو إنجاز إنساني له بشرطه التاريخية وأصنافه المستقلة في الماضي الذي عاش فيه "الجاحظ" و "ابن المعتز" و "الأمدي" و "الجرجاني" وهذا التراث داخل في التكوين النقدي لهذا القارئ ولا يزال يؤثر في بناء قِيامه في تذوق الأدب سلبيا وإيجابيا.

يرى بعض الدارسين للتراث أن سبب شيوع مصطلح القراءة راجع إلى الرغبة في تأكيد الطابع التفسيري (التأويلي) لكل فعل من أفعال القراءة في مختلف المجالات الثقافية وكذلك تأكيد دور القارئ في عملية القراءة وهو ما فرض التركيز المعاصر على الجانب النظري والتطبيقي من معنى القراءة، وهذا التميز بين الأبعاد النظرية و التطبيقية للقراءة مسألة بالغة الأهمية والإلحاح خصوصا حين يتصل الأمر في قراءة تراثنا النقدي، لأن كلا المستويين يتجاوب مع الآخر تجاوب التأثير والتأثير، والأدق إن نقول أن العلاقة بين المستويين الذين تتضمنهما عبارة "قراءة التراث النقدي"، «هي علاقة بعد تبادلي بالكم والكيف ومن حيث الإضافة الكمية في قراءة التراث النقدي تكون باكتشاف مخطوطات ضائعة أو نصوص مجهولة أو تراكم طبقات محققة (...)»¹³

إن القراءة أداء للنص و إنتاج لدلالته في الحدث الذي يصل ما بين دلالة التتبع و لضم والإبلاغ ودلالة الإكتشاف والتعرف والفهم التأويلي، فذلك يعني أن القراءة تظل عملية تلفظ للنص ينطق عبر قارئه و القراءة هي إيجاد ما تراغب فيه النفس متحقق في الخارج، و بالتالي فالتراث لا يوجد في ذاته وإنما في قراءتنا له و موقفنا منه و توظيفنا له.

وقراءة التراث في النقد العربي الحديث تنطوي على نزعتان شائعتان في الكثير من القراءات بحيث تصبح القراءة مع النزعة الأولى وصفا محايدا لدائرة المقروء في عزلة تفصله عن القارئ وتصبح القراءة مع النزعة الثانية وصفا عصريا للتراث بقدر ما يصبح تحديد حال التراث نفسه في هاتين النزعتين مرهونا بمنظور القراءة فإن هذا الحال يقع على قطبين متنافرين ينتسب في أقصى أولهما إلى ماض منعزل عن الحاضر وإلى مقروء منفصل عن قارئه، وينتسب في أقصى ثانيهما إلى حاضر متلبس بمشكلات قراءة التراث في وعيم المعاصر، كما نميز هنا بين عدة قراءات منها:

- القراءة الذاتية و الإيديولوجية: حيث تصدر الأولى عن الإيديولوجية الشخصية للقارئ والثانية عن الإيديولوجية العامة.
- القراءة (الجزئية)، (المركزية) من محور المقروء في علاقته بنسقه المعرفي، حيث تركز الأولى عن المقروء ومنعزلا عن علاقته المعرفية، وتركز الثانية على المقروء من منظور واحد ثابت.
- القراءة التقليدية و التعويضية: حيث تنطلق القراءة الأولى من الوقوع في أسر القراءات السابقة بينما تنطلق القراءة الثانية من الإحساس بالحضور الأدبي النقدي للآخر (الغربي).

يؤكد هنا جابر عصفور أن تعدد القراءات يدعوا إلى تعدد الشروط التاريخية و غيرها من عصر إلى عصر، وذلك على تحولا ينفصل معه التراث المقروء عن علاقات متعينة، و يرى جابر أن قراءة التراث العام و الخاص ظلت و ما زالت في الأغلب تعاني من غياب المبدأ و بالنسبة له قراءة التراث النقدي له فائدة في قراءة التراث الفلسفي في تناول الحقول المعرفية للتراث، وأن قراءة التراث الفلسفي تظل ناقصة ما لم تتكامل مع قراءة التراث النقدي، لذلك أكد انه من المفيد أن نضع قراءة التراث في علاقة مع بقية قراءات حقول التراث الأخرى، لكي نتعمق في فهم الوحدة المنهجية للقراءة والوحدة العلائقية للموضوع المقروء معا.

يرى جابر عصفور أن كل معرفة قائمة بالتراث تتطور بوجود استعارتين "التطور و التعبير"، كما لا يمكن الاستغناء عنهما أو تجاهلهما بحيث تعد قوى تحكم في توجهاتنا في قراءة التراث النقدي فهي القطب الذي يحدد محيط القراءة وهي المركز القيمي الذي تنطلق منه القراءة داخل النسق المعرفي و استعارة التعبير هي الإطار المرجعي الأكثر هيمنة على قراءة تراثنا النقدي، كما يعترف جابر عصفور بعدم وجود قراءة محايدة أو بريئة للتراث ذلك "لأننا نقرأ التراث و ننطلق من مواقف فكرية محددة لا سبيل إلى تجاهلها، و نفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة و السالبة بالمعنى الذي يحدد إطاره المرجعي بالموقف الفكرية التي ننطلق منها".¹⁴

كما حدد لنا د. جابر عصفور شروط قراءة التراث، فدعا إلى تعمق النص بحد ذاته فلا تسقط معارفنا الذاتية عليه، و لا نحاكمه وفق ظروفنا التاريخية و معطياتنا الفكرية وهو يسعى إلى تأسيس منهج جديد ينتج معرفة بالتراث، فلا يكون لأفكار جاهزة عنه، وإنما نتيجة استنباط فكر جديد خاص به وهو يدعو من أجل ذلك إلى الاستعانة بأدوات معرفية جديدة، قد تكون غريبة مستوردة، و لكن بشرط التزام الحذر في التعامل معها، فلا تطبق بشكل حرفي، أي دون تقليد لأن غيبة الوعي النقدي في قراءة التراث النقدي يؤدي إلى قراءة تقليدية وهذه القراءة يتحول معها القارئ إلى نقلي دون أن ينتبه وذلك عندما يستسلم عند الصيغ التفسيرية المتراكمة داخل القراءات السابقة فيستقبلها استقبالا آليا ويعيد إرسالها لا شعوريا فالتقليد هو "قبول قول الغير بلا دليل (...) و بلا استدلال"¹⁵

لهذا كانت نظرية الهرمونيظيقا نظرية نقدية "فهي في الحقيقة نظرية متسقة تضمنت تحليلا للبنان المنطقي الداخلي لمفهومه النظري وللمبادئ الميثودولوجية لتفكيره وملكانيزم الرؤيا الاجتماعية التي تكمن خلف المخططات والأساليب الإيديولوجية للحجج التي يستخدمها، ومنه فإن حضور النقد ضمن هذه النظرية عنده تعني نقطتين مهمتين:

أولا الإحاطة الكاملة والتحكم الجيد في الموضوع المدروس والإلمام التام بتفاصيله وخبائاه، ، مستندا إلى الجدل الماركسي والمادية الجدلية في تفسير الظواهر، فنجده تكلم عن صراع الطبقات والوعي الطبقي ودوره في رسم أيديولوجيات المثقف العربي، وحلل مفاهيم الأيديولوجيا والقيم والتخلف والهيمنة والعجز بشكل يتعدى التفسيرات السطحية لبعض المفكرين العرب، إنما تغلغل في تفسيرها النفسي التحليلي واللاشعوري.

الخاتمة:

كان وقوف بحثنا على قراءة التراث النقدي من وجهة نظر فلسفية محاولة في ربط النقد ونظريته إليه في ضوء علاقته مع غيره من الأنماط المشكلة للتراث والكشف عن الطريقة التي نقرأ بها هذا التراث باعتباره الهوية الثقافية للمجتمع، فقد أولى هذا النوع من النقد اهتماما كبيرا للتراث ويظهر ذلك من خلال تنوع أعماله المتعلقة بالتراث بين النقدي والفكري والأدبي وقد توصل البحث من خلال هذه الرحلة إلى جملة من النتائج نذكرها فيما يلي:

- إن قراءة التراث شكلت حيزا كبيرا من اهتمامات النقاد العرب لما كان يهدف من خلالها إلى صياغة نظرية نقرأ بها التراث فقد سجل البحث حضورا لنظرية القراءة وذلك الارتباط الوثيق بين الفعل القرائي والقارئ الذي يحاور أنساق النص التراثي كما ناقش في هذا الصدد مفهوم الهرمينوطيقا بمفهومها الغربي .

- لقد كان وقوف البحث عند إشكالية قراءة التراث النقدي على اعتبار ما لهذا الفراغ من دور في بناء وإعادة إحياء التراث، فقد أكد عبر مقارنة التراث من داخل المجتمع بما يفرضه من إشكالات .

وفي الأخير يمكن القول أن ما أنتجته الهرمينوطيقا كان قراءة /تأويلا/ تفسيرا، يحمل بصمته وخصوصيته التي تتميز به بقدر ما يتميز بها، فتكون بذلك دالة عليه وعلى نمط قراءته، كما كشف البحث عن حضور آليات مقارنة قراءة التراث النقدي ومن هذه القراءة الأخيرة توصل البحث إلى تحليل كيفية قراءة التراث من. ويمكن القول إن دور الهرمينوطيقا في مجال النقد الأكاديمي و الثقافي شكل إسهاما بارزا في إعلاء قيم الاستنارة في مواجهة قيم الجمود والتخلف، لتقديم الوجه الإيجابي لثقافة عربية معاصرة، تنتقل بأبنائها من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية.

لذلك فإن معاينة الناقد لمحيطه وعصره لا تجعله مجرد شاهد عيان، وإنما تترجم في شكل مواجهة نقدية، حتى يصبح قادرا على تجاوز الأفكار المتحجرة وإعادة بنائها داخل السياقات السوسيوثقافية لهذا المحيط، بصورة إبداعية لم يسبق لأحد خلقها، وبالتالي فإن منطق النقد بمفهومه الواسع المتصل بالشك والمذهب النقدي يكون من

مستوى غير متعالى، وتكونه شروط بسيطة لإدراك الوقائع وضبط تصورات الظواهر بمختلف أنواعها الفكرية والاجتماعية وحتى السياسية، وكذلك يرتبط النقد بآلية العقلانية المرتبطة بالفكر دون سواه، فالتفكير بالنسبة للناقد هو نمط من التقييم والتحليل، وهكذا يسعى الأخير إلى قلب العديد من المفاهيم وإعادة النظر فيها، وإعادة بناء قيم وأفكار مستقبلية جديدة بعيدة عن التصورات الدغمائية والبالية .

. الهوامش:

thabet.soltane@univ-constantine2.dz 1

1 أحمد عبد الكريم أحمد، فلسفة النقد من الإجراء إلى النظرية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، إربد، ط1، 2015، ص56.

² عبد الفتاح الحجمري، نظرة حول المشروع النقدي لجابر عصفور، الدار البيضاء، المغرب، 2010م، ص60.

3 جابر عصفور، نقد ثقافة التخلف، دار الشروق، مصر، القاهرة، 2008م.

4 المرجع نفسه.

⁵ الجابري، التراث الحداثي: دراسات ومناقشات، ط2، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، يوليو 1999، ص 13.

⁶ - جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ط1، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، 1991م، ص 32.

⁷ - ابن منظور، لسان العرب، المحيط، ط1، دار لسان العرب، بيروت، 1408هـ، 1988م، ص 907.

⁸ - جابر عصفور، قراءة تراث النقدي، ص 44.

⁹ - المصدر نفسه، ص 7.

¹⁰ - جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 7.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 8.

¹² - المصدر نفسه، ص 12.

¹³ - جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 32.

¹⁴ جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 5.

¹⁵ جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 35.